كان من المفترض أن يكون أجمل يوم في حياتي، اليوم الذي أجد فيه نفسي مع زوجي سعيدة ومعي أطفال، لكن شيئاً مما تمنيت لم يحدث ولو قص علي أحد غيري نفس القصة لأنكرتها فوراً، ولقلت أن هذه مجرد امرأة مريضة نفسياً، تتخيل أشياء لا وجود لها، تريد فقط أن تحكي قصة ليُصغوا إليها ويتحدثوا عنها، وبصراحة كنت أتمنى لو كان الأمر كذلك، كنت أتمنى أن أكون سايكويات أو إنسانة تعشق الأضواء لكنني لست كذلك، وأمي وأختي شاهدتان على الرعب الذي عشته، وما رويته لا يمثل سوى جزء صغير، لأن ما حدث بعد الزواج، ما وقع خلف الأبواب المغلقة الله وحده يعلمه، والله وحده أنقذني، أو ربما لم ينقذني تماماً بعد. في تلك الفترة، أي قبل أربع سنوات، كنت أعيش مع والدي في باتنة شرق الجزائر، كان عمري ثماني وعشرين سنة وكنت قد أنهيت دراستي وكنت متدينة جداً، ألبس النقاب وأصلي كثيراً ولا أخرج من البيت إلا للضرورة، لم تكن لي صديقات ولم أختلط بالناس، وهذا جعل الزواج أمراً شبه مستحيل، فكيف أتزوج وأنا لا أخرج ولا أظهر ولا أملك حسابات على مواقع التواصل ؟ ومع أنني في الظاهر جميلة ومتعلمة وأجيد الكلام ومثقفة إلا أنني كنت أشعر بالملل في البيت، وعائلتي بدأت تفقد صبرها، يخافون أن يفوتني القطار، بل بعضهم كان يرى أن القطار فات بالفعل. كنا نعيش أنا وأختي وأخي الصغير الذي لم يتجاوز الثانية عشرة وأمي، فقد توفي أبي منذ ست سنوات في حادث حافلة، ومنذ ذلك الحين أصبح وضعنا هشاً، مالنا قليل وأحياناً كانت أمي تخبز في البيت وتبيع كي نوفر القليل من احتياجاتنا، ومع مرور الوقت شعرت أنني مجرد فم زائد يثقل كاهل البيت. كنا نسكن في عمارة قديمة ومنذ طفولتي وأنا أعرف جارتنا الهادية. امرأة من الجنوب الجزائري تزوجت في باتنة، طيبة ولطيفة ودائمة الابتسامة، كانت كفرد من العائلة تجلب لنا الحلويات وتزورنا باستمرار ومع تقدم عمري وقلة صداقاتي أصبحت أقرب الناس إلي، فكنا نقضي أحياناً ليالي طويلة نشاهد الأفلام ونتحدث عن كل شيء. ومنذ طفولتي كانت تردد أمام الجميع أن عيوني خضراء رائعة، وأنني سأكون يوماً ما الزوجة المثالية لابن أختها. كنا نضحك على كلامها في البداية، لكن مع مرور السنوات بدأنا نأخذه بجدية أكبر، خاصة وأنها لم تكف يوماً عن مدحه والتأكيد على أنه إنسان محترم. ومن غير أن أشعر وجدت نفسي أتابع أخباره حين أنهى دراسته، وحين التحق بسلك الدرك، وحتى عندما بدأ يبحث عن زوجة. إلى أن جاء يوم وقفت أمي أمامها وقالت بجرأة ابنتي عمرها ثماني وعشرون، ابن أختك عمره ثلاثون، الاثنان غير متزوجين، لماذا لا ؟ قالتها مازحة لكنها كانت جادة في الوقت نفسه، فقامت الهادية فوراً وأخرجت هاتفها وقالت: سأتصل الآن بأختي، ستكون أسعد النساء، أنا دائماً أحدثهم عنكم وهي تحبكم حتى دون أن تعرفكم، ثم خرجت من الغرفة واتصلت فعلاً، وكنت أراقب أمي وهي تنظر إلي، لم أعترض ولم أسأل لماذا استعجلت قلت في نفسي : ولم لا ؟ إنه شخص أعرفه من بعيد منذ سنوات، وأعرف سمعته وأهلي يعرفونه. وحين عادت أخبرتني أن أمه تقول إنه يبحث فعلاً عن زوجة ويريد أن يستقر، كان مرتبطاً من قبل ولم ينجح الأمر وهي متأكدة أنني سأعجبه كما أعجبته فكرة عيوني الخضراء التي كانت تكررها دائماً، ابتسمت بلا وعي وكأن صلواتي استجيبت، وفي نهاية اليوم أعطتني رقم هاتفه. تحدثت معه وكان رجلاً هادئاً لطيفاً مبادراً في الكلام، يجيد التواصل وليس مملاً، وبما أنني متدينة لم أرد أن أطيل المكالمات، مجرد تعارف أول، ثم أخبرته أن الأفضل أن يطلبني رسمياً، فقال بلا تردد: سأفعل وفعلاً جاء بعد أسبوع واحد من الجنوب مع أمه وأبيه وجدته وعمته لم يأتوا كثيراً، ونحن أيضاً لم نكن كثيرين ، كان معنا فقط خالي الكبير تحدثنا طويلاً وتناقشنا وخطبنا وعملنا الفاتحة، أي الزواج الديني، كان كل شيء سريعاً، لكنني كنت مصرة أن يكون رسمياً لا كلاماً في الهاتف ولا خطوبة طويلة. وبصراحة شعرت وكأنني أعرفه منذ سنوات، فأنا أسمع عنه منذ طفولتي من جارتي وأحاديثها، والآن أكلمه وجهاً لوجه، وكل شيء مر بسلاسة، وعندما سألته عن خطيبته السابقة قال أنها كانت مجنونة تماماً، تتخيل أشياء ومريضة نفسياً، ولم أسأله أكثر، الماضي لم يكن يهمني، ما يهمني كان الحاضر. كان كل شيء يسير بخطى هادئة الخطوبة مضت كما يجب، العائلة بدت لطيفة والجو كان مطمئناً، غير أن شيئاً واحداً بقي عالقاً في ذهني، ففي لحظة ما اقتربت مني جدته العجوز مدت يدها ولمست ذراعي بطريقة غريبة جعلتني أشعر بعدم ارتياح، ثم قالت بصوت واثق أنا متأكدة أنهم سيكونون راضين، نظرت إليها بدهشة وقلت: من ؟ فأجابت بابتسامة باهتة هو، ثم ضحكت وأضافت: لا تقلقي، سيكونون كذلك، لن يؤذوك، بقيت أحدق فيها مذهولة لا أفهم قصدها حتى جاءت أم نسيم، خطيبي، وضحكت وسحبت أمها جانباً وقالت لي: لا تسمعي لها كثيراً، إنها مريضة بالزهايمر، تهذي وتقول أي كلام. فابتسمت مجاملة وقلت: لا بأس، لا مشكلة. رحلوا بعد ذلك وأنا سعيدة، لم أرد أن أفسد فرحتي بما قالته الجدة، كل شيء بدا جيداً ، العائلة بدت محترمة، حتى أنني تساءلت في نفسي: كيف لرجل جميل هكذا أن يظل أعزباً حتى الآن؟ لكني لم أطل التفكير، فما يهمني أنني أخيراً على وشك أن أبدأ حياة جديدة، مضت الأيام ونحن نتحدث بالهاتف كل مساء تقريباً، وكنت ألاحظ شيئاً غريباً يتكرر دائماً، فعند الساعة الحادية عشرة والنصف بالضبط، كنت أسمع صوت امرأة عجوز يقول بوضوح حان وقت رؤيتهم، إنهم ينتظرونك ، عندها يقطع نسيم

Summarized by © lakhasly.com

كلامه فجأة ويقول: يجب أن أذهب الآن ويغلق الخط، كنت أتساءل: من هي تلك المرأة؟ من هم الذين ينتظرونه؟ لكنه كان يجيب باقتضاب ليس مهماً، ثم يغير الموضوع. الولاد لم أشك في خيانة، فالصوت كان صوت امرأة كبيرة، ربما جدته وربما أمور عائلية تخصه، لم أرد أن أدخل في تفاصيلها، قلت في نفسي: هذه ليست مشاكلي الأهم أن زواجنا قريب، وقد حددناه بعد شهرين كان هو مستعجلاً وأنا كذلك، فلماذا نؤجل ؟ تزوجنا رسمياً في البلدية عندنا، أما الاحتفال الكبير فكان مبرمجاً بعد شهر في قريتهم، وأنا لم أقم بزفاف عند أهلي، لم يكن يهمني الأمر كثيراً، لا إمكانيات لدي، لا صديقات ولا عائلة كبيرة عرضوا أن يمولوا الحفل فرفضت وقلت يكفي أن يُقام عندهم، سأجلب ملابسي وأشارك بعرض العروس كما يريدون، فهذا بالنسبة لهم أمر لا يمكن الاستغناء عنه.

جهزت أغراضي وجاؤوا ليأخذوني وكان من الأفضل أن أبقى عندهم يومين قبل الزفاف لأرتاح وأتهيأ هناك، فالمسافة بين المدينتين بعيدة وكان الأسهل أن أصفّف شعري وأستعد عندهم بدل أن أبقى في بيتي ثم أقطع الطريق مع الموكب. بعد طريق طويل وبطيء تغطيه طبقات الغبار وتتخلله الصخور، بلغنا قرية معزولة تماماً، بيوت قليلة وكبيرة تحيط بالمكان. وسطها كان بيتهم، أشبه بقصر قديم واسع لكنه مهمل، يوحي بماضي عائلة غنية بلا عناية. وما إن وصلنا عندهم ونزلت من السيارة حتى فوجئت بما لا يقل عن عشرين كلباً يحيطون بالبيت من كل جانب مشهد غريب لم أره من قبل. كانت هناك بعض القطط الضالة، لكن الكلاب كانت تملأ المكان بلا استثناء سألتهم بدهشة: ما قصة هذه الكلاب ؟ أهو ملجأ ؟ فضحكوا وقالوا أنهم يحتاجون الكلاب ولا داعي للقلق، فهي غير مؤذية. ثم أدخلوني إلى البيت، فوجدته بارداً بلا حياة، فيه أثاث وتلفاز لكن بلا صور على الجدران ولا سجاد ولا أي ديكور، بدا لي كصندوق فارغ. قلت في نفسي ربما أنا متشائمة، ونظرت إلى أمي وأختي، إذ كنا فقط نحن الثلاثة، أما أخي الصغير فقد تركناه عند الجارة، وخالي لم يتمكن من الحضور بسبب ظرف طارئ تبادلنا النظرات ونحن نحاول أن نفهم المكان، فشرحوا لنا أن البيت مؤلف من أربعة طوابق، في كل طابق عائلة والمطبخ واحد مشترك للجميع. لم أفهم السبب لكني لم أطل السؤال. بعد ذلك وجهونا إلى غرفتنا وقالوا أن غرفة العروس ستكون مفاجأة دخلنا ووضعنا أغراضنا والزغاريد تملأ المكان والجميع كان في غاية السعادة. وفي اليوم نفسه، مع أننا كنا قد وصلنا للتو، أصروا أن نذهب إلى الحمام التقليدي المخصص للعروس، وكان كل شيء قد جهز مسبقاً، إذ كان لهم حمام خاص بالعائلة، لا يخص القرية ولا عامة الناس. أخذوني إليه ففوجئت باتساعه الكبير ، ولم أفهم ما الحاجة إلى هذا الحجم وهو مخصص للعائلة فقط. دخلت مع أمي وأختي، وهناك كانت المفاجأة: ما لا يقل عن أربعين امرأة في الداخل لم أر في حياتي مثل هذا العدد في حمام واحد والأغرب أن وجوههن جميعاً كانت عابسة جامدة بلا ابتسامة، حتى حين حاولت أن أبدو لطيفة وأبتسم، لم يرد علي أحد. عندها همست لي حماتي: لا تقلقي، هكذا عندنا. فسألتها باستغراب: أفي كل المنطقة ؟ فأجابت: لا، هذا أمر يخص عائلتنا فقط. ي غير وتلفاز تدوق كنا لم ول كل دخلنا الحمام فغمرنا البخار الكثيف، وفجأة، والله لا أبالغ، كلهن أنزلن مناشفهن في اللحظة نفسها، ووقفن عاريات تماماً من الرأس إلى القدم، وأنا المتدينة التي كنت أرفض فكرة الحمام من الأساس شعرت بغرابة شديدة، بقيت مغطاة قدر الإمكان بمنشفي، أما من فكن جميعاً بلا استثناء عاريات حتى أخوات زوجي وحماتي وجئن نحوي يقلن: انزعي قلت: لا، وشرحت لهن بلطف أن الأمر لا يناسبني، لكنهن أصرون حتى اقتربت مني إحدى النساء وأمسكت ذراعي بقوة وقالت بحدة: اسمعي هنا هكذا ولن يكون غير ذلك، إذن تنزعين، صدمت من عنفها وقلت لها: لا ! وبقيت على موقفي حتى جاءت حماتي ووقفت بيننا وسحبتهم جانباً وشرحت لهم، فغضين لكن قلن: حسناً. بدأت أنظف نفسي بهدوء وكل شيء بدا عادياً في البداية، لكن شيئاً ثقيلاً أخذ يتسرب إلى الجو، نظرات النساء صارت أثقل، والصمت أصبح خانقاً. ثم، وببطء مريب، وقفت قرابة أربعين امرأة في اللحظة نفسها، كأن قوة خفية دفعت أجسادهن دفعة واحدة ارتفعت الأصوات فجأة صراخ حاد كلمات غريبة بلا معنى نصفهن يصرخن والنصف الآخر يتمتم بلغة مبهمة لم أفهمها! المشهد انقلب مرعباً، كأنني في جحيم، أو في لقطة من فيلم رعب إندونيسي، أصوات متداخلة صراخ جماعي، عبارات غير مفهومة، وأنا جامدة في مكاني أرتجف عاجزة عن استيعاب ما يحدث! وفجأة أمسكت بي النساء من ذراعي بقوة وسحبنني إلى الوسط ووضعنني في قلب الحمام، كنت محاطة بعشرات النساء العاريات اللواتي بدأن يدرن حولي في دوائر متلاحقة، يلففن شعورهن الطويلة بسرعة غير طبيعية وأنا واقفة مذهولة أراقب خصل الشعر وهي تقترب مني وتدور حول رأسي وتلامس وجهي شعرت بالأرض تهتز تحت قدمي وكأن جمجمتي على وشك الانفجار من شدة الصداع وكنت أقول في نفسي أنني لو حاولت تقليد عشر ما يفعلن لكنت من فوراً، وكنت أسمع صرخاتهن العالية تختلط بالبخار الكثيف الذي يغطي المكان حتى صار المشهد كله أشبه بجحيم خانق، وأمي وأختي كانتا تراقبان بذهول مثلي، تطرحان الأسئلة وتبحثان عن تفسير ولا أحد يجيب. حاولت أن أخرج من تلك الدائرة فلم يسمحن لي، بل أخذن الحناء وبدأن يرمينها علي بدل أن يضعنها في يدي كما هو معتاد،

Summarized by © lakhasly.com

يرششنها على رأسي وكتفي وجسدي حتى غطتني تماماً وصرت أشعر بالقرف فصرخت توقفن اللعنة عليكم فجاءت حماتي بخطوات ثابتة وقالت لي بغضب: دعيهن يفعلن، يجب أن نرضيهم، إذا لم نرضهم سيتحول الزواج إلى جنازة، عندها تجمد الدم في عروقي، ما علاقة الجنازة بالزواج؟ قلبي يخفق بجنون والحرارة تخنقني وأصواتهن تتعالى بلغة غريبة فيها أسماء لم أفهمها، وأمي وأختي تدفعان النساء وتصرخان اتركوها، بينما كل شيء من حولي يزداد غموضاً ورعباً، ثم فجأة وفي لحظة واحدة صمتت النساء جميعاً كان قوة خفية أمرتهن بالتوقف وساد سكون ثقيل لا يقل رعباً عن الصراخ. جلست في زاوية أبكي وأنا أمسح عني الحناء الملتصقة، فاقتربت مني امرأة وقالت: يجب أن أنظف جسدك، قلت لها: لا شكراً، لكنها تجاهلت كلامي وبدأت تفرك ظهري ببطء ثم راحت تزيد السرعة والقوة حتى شعرت أن جلد ظهري يتمزق صرخت بهدوء، لكنها أصرت وأصبحت تفرك بعنف حتى صرت أصرخ من الألم ، فتدخلت أمي ودفعتها قائلة: ما بك ؟ فردت المرأة بعينين غريبتين: لم تُرضنا ، كان يجب أن تنزع المنشفة. لم أفهم شيئاً وظهري يحترق، فجاءت حماتي مسرعة وقالت: لا، لا ، سوء تفاهم فقط، لا تقلقي كل شيء سيكون بخير. خرجت مسرعة تتبعني أمي وأختي وخلفنا حماتي وابنتاها يحاولن تهدئتي ويقلن: هذه مجرد تقاليد عندنا فصرخت هذه ليست تقاليد هذا طقس... هذا شيء آخر، عندها نظرت إحداهن في عيني وقالت ببرود: الأصعب من فاصبري، فحدقت فيها مذهولة وسألتها: أي أصعب ؟ ولماذا ذكرت أمك الجنازة ؟ فابتسمت ابتسامة متوترة وهمست: كل شيء بخير. دخلت غرفتي وأغلقت الباب وارتديت ثيابي وجلست أبكي، قلت لنفسي: هذه البداية فقط، مع من تزوجت؟ ثم خرجت إلى المطبخ وسألت حماتي أين هو نسيم ؟ لم أره منذ جئت، فقالت: عنده مهمة عاجلة وسيأتي، قلت: لكن غداً زواجنا لا توجد مهمة أهم، فقالت: هناك أوامر لا يستطيع أن يرفضها لكنه سيكون هنا، حاولت أن أقتنع، ثم أضافت الطعام محضر، تعالي لنأكل. دخلنا قاعة ضخمة فيها عشرات الطاولات، لكن الغريب أن كل الطاولات كانت فارغة متسخة الصحون كأن أحداً أكل منها باستثناء طاولتنا نحن التي كانت ممتلئة بأطباق الكسكس والسلطات والبوريك سألت من أكل هنا ؟ فقالت حماتي بابتسامة غامضة هؤلاء نساء الحمام، ارتجفت وقلت: هذا مستحيل كنّ ما زلن هناك، لم يخرجن بعد، لكنها لم ترد سوى بضحكة صغيرة وقالت ليس مهماً، كلي، جلست وأنا أشعر بالغثيان، فالطعام أمامي له طعم غريب، اللحم لم يطبخ جيداً والصلصة بطعم غير مألوف، ومع ذلك أجبرت نفسي أن أبتلع بعض اللقم حتى لا أسقط من التعب، وكلما حاولت أن أقنع نفسي أن الأمر طبيعي كان داخلي يهمس لي أنني وقعت في كابوس لا مفر منه. بدأ الوقت يتأخر شيئًا فشيئًا حتى لامست عقارب الساعة الخامسة مساءً، كان الشتاء يفرض نفسه والبرد يتسرب من الشقوق والجدران والليل في الجنوب يسقط فجأة مثل ستارة سوداء لا تمنحك فرصة لتستعد، فأكلت على عجل دون شهية ثم اعتذرت لأصعد إلى الغرفة أردت فقط أن أستريح لأن الغد كان يومي المنتظر، يوم زواجي، وكان لابد أن أواجهه بجسد غير منهك، لكن الحقيقة أنني لم أكن أملك طاقة لأي شيء، عدت إلى السرير حيث كانت أمي بجانبي وأختي على الأريكة القريبة، وما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى سقط عليا النومكصخرة ثقيلة تشل كل حركة وتغلق كل وعي، لم يكن نوما عاديا بل انقطاعا تاما عن العالم. وفي ذلك الانقطاع جاءت الصورة التي لا تفارقني، حلم غريب واضح بشكل مرعب، ليس مثل الأحلام التي تتفتت عند أول صحو، بل مشهد حي محفور في رأسي إلى اليوم، رأيت نفسي في القرية نفسها، ليل حالك وطفل صغير يحفر حفرة، يضع فيها شيئًا غامضا ويغطيه، لكن مع كل قبضة تراب كان يعلو صراخ رهيب صراخ امرأة تدفن حية، ارتجفت وسألته: ماذا تفعل ؟ أسمع صوتًا، لكنه التفت إلي ببرود وقال: لقد دفنتها، وسأفعل بك الشيء نفسه، ستدفنين هنا كما دفنت هي. حاولت أن أزيحه وبدأت أحفر بأصابعي بجنون وأنا أسمع الصراخ يتضاعف، لكن فجأة شعرت بشدّ عنيف من شعري، التفت فإذا بنساء الحمام يجررنني من الخلف يسحبنني إلى دائرة سوداء وهن يصرخن بكلمات مقلوبة لغة لا يفهمها بشر، طلاسم تنطق بالعكس، كنت أصرخ وأتوسل وهن يواصلن، وأمام عيني ظهرت حفرة أشبه بمغارة حالكة لا قاع لها، وكلما اقتربن بي منها شعرت أن نهايتي تنتظرني في الداخل، وكنت أسمع من قلب تلك العتمة صوتًا يخترقني ذلك المكان سيمنعك من الصلاة، ذلك المكان سيمنعك من الإيمان بالله، ذلك المكان سيبعدك عن الله، اركضي، اركضي، اركضي ! انتفضت من النوم كأن أحدًا هزني بعنف، أتنفس بسرعة وجسدي غارق في العرق، أنظر إلى أصابعي وهي ترتجف وكأنها ما زالت تحفر ، الألم فيها حقيقي، رأسي يؤلمني.

Summarized by © lakhasly.com